حنفهِ بظلفهِ وفيتاليا وصديقان حميان لها ثم سدَّ القبر فتمَّ الدفن الرابع وبلغ بهِ مجموع الذين دفنوا ٣٥ نفساً

ويظهر مما تقدم ان تيودور كوفالف اليد الطولى في ما جرى فانهُ دفن امرأتهُ واولادهُ واختهُ وامهُ واخاهُ بيديهِ عملاً بامر فيتاليا وكانت قد اوصتهُ قبل دفنها ان لا ياكل ولا يشرب بل ينتظر انقضاء العالم بعد يوم او يومين فعمل بالوصية اربعة ايام ولكنهُ لما رأى انهُ لم تقم حرب ولا جاءهُ احد ليقتادهُ الى السجن ولا انقضى العالم خالف الوصية واكل

ولما انتشر خبر ما جرى وسئل عنهُ قال انهم لم يكونوا يظنون انهم يخطئون في طاعة فيتاليا لانها كانت تصوم وتصلي وتقرأ الكتب الدينية وسأل قائلاً لم يهدنا احد الى طريق الحق والصواب

فيرى القارئ من حكاية هذه الشيعة ان الانتحار ليس من مبادئها الدينية كما شاع وان العلاقة الدينية بهِ ضعيفة . بل ان عملها هذا تقليدي سببهُ معيشتها في العزلة والانفراد والجهل المطبق فنشأ اعضاؤها كثيري المخاوف والاوهام فقادهم جهلهم الى اتباع طرق غريبة لمقاومة الاعداء والاخطار الوهمية وهذا كلهُ يقود الى التعصب الديني في افظع حالاتهِ . واذا انقاد رجل بضعف ارادتهِ وتسليمهِ الاعمى ليكون آلة صماء في ايدي الذين بلغ بهم تعصبهم درجة الجنون فلا عجب اذا فعل ما هو اغرب من ذلك

عروسة النيل

الفصل الثاني والعشرون

لم تكن توبة كاترينا خالصة فإن الغيرة اعمت بصيرتها وحرقت فؤادها فاصبحت يتنازعها عاملا الحب والكره ويعيشان بها فتارةً تحن الى لقاء باولين وتارة تصدّ عنها وراجعت ما دار بينهما من الحديث في البستان فصدَّت سكوت باولين حينئذٍ واجوبتها الموجزة دليلاً على توثيق عرى الوداد والحب بينها وبين اوربون فارادت تحقق الامر بنفسها بحيث لا يبقى ثمت مجال للريب

وكان لها منذ الطفولية حليف في جميع اعمالها وصديق تعتمدهُ في قضاء مهماتها وهو انوبيس اخوها في الرضاع وابن مرضعها وكان هذا الفتى نشيطاً مجتهداً فاقام مع والدتهِ في بيت سوسنة الارملة حتى شبَّ فدبَّرت لهُ هذه عملاً في ادارة خزينة المقوقس وكان شغفاً بتربية حمام الزاجل يستخدمهُ في نقل الرسائل فاذنوا لهُ ان يقيم برجاً للحمام على سطح الخزينة وكانت ماري وكاترينا تتكاتبان والحمام ينقل مكاتيبهما فلما مرضت الاولى انقطعت المكاتبة بينهما

وفي صباح احد الايام بعث انويس ينبئها بانهم سيدفعون الى باولين ما لها وان اوريون سيذهب بنفسهِ اليها لهذا الغرض فرأت ان تنتهز الفرصة للوقوف على ما يدور بينهما علَّها تستدل بهِ على حقيقة امرهما واقرَّت على خطة معينة واتخذت التدابير لمعرفة ساعة ذهابهِ اليها وفي الصباح التالي جاء خادمها برقعة نقلها الحمام فاذا بها من انويس يخبرها بقرب خروج اوريون في مهمتهِ

فشقَّ على كاترينا ان يكون ذهابهُ في تلك الساعة لأن بنيامين بطريرك الاسكندرية جاء الى الفسطاط وعزم على زيارة منف ذلك النهار وكانت والدتها قد دعتهُ الى الغداء في بيتها تبركًا فقبل الدعوة وانهمك اهل البيت في اعداد الوليمة وتمييق المنزل وزينتهِ احتفاء بالزائر الكريم امَّا كاترينا فامرتها امها بتردي افخر حللها وبملازمة غرفتها الى ساعة وصول البطريرك فتنزل لاستقبالهِ حاملة باقة من الازهار فاسرعت الى غرفتها وقالت في نفسها "من الآن للظهر ساعتان فاذا جاء اوريون الى بيت روفينس ولبث هناك نصف ساعة تمكنت من رؤيتهِ واستطلاع امرهما وعدت فارتديت ثيابي وقابلت البطريرك" فاحتذت حذاء مطرَّزًا وامرت خادمتيها بانتظارها الى ان تعود ثم غادرتهما وذهبت الى مرتفع في البستان يشرف على بيت روفينس ولم يطل بها المقام حتى ابصرت اوريون قادمًا في مركبة امهِ فوقفت المركبة امام مدخل البيت فترجل وتبعهُ خازنهُ ثم رأت العبيد يخرجون من المركبة اكياسًا كثيرة ثقيلة وكان اوريون وحدهُ قبلة ناظرها فلم تكترث للباقين ولم تحفل باكياس الذهب وبدا لها ابن المقوقس في ثوب الحداد كاجمل ما رأتهُ ولما خطر ببالها ان هذا الفتى الجميل احبها وقبَّلها وكاد يكون زوجها حتى سلبتها اياهُ أخرى ملأ الوجد فؤادها واشتدَّ بها الحنين اليهِ وغلت البغضاء في صدرها فجلست تتأملهُ حتى غاب في البيت وقد فتن جمالهُ لبها واطار الجوى صوابها فهمَّت بلحاقهِ لتطرح نفسها بينهُ وبين باولين وتفصلهما فلا يلتقيان

واشتدَّ الهجير فقصفت ورقة كبيرة ووضعتها على رأسها اتقاء الحرّ ولم تأت بمظلةٍ لئلاَّ يعلم مكانها ولما طال بها المقام وخشيت ان يأتي البطريرك فيفاجئها على غير استعداد هرعت الى غرفتها وامرت خادمتيها بالاسراع في الباسها ثم طلبت الى احداهما ان تعدَّ باقة من الورود فتضعها في الغرفة الى ساعة يأتي البطريرك وعادت الى مكانها وفي يدها بعض حلاها لتلبسها هناك ولم تكد تصل الى المرتفع حتى رأت نيلس خارجًا من البيت واما العبيد يحملون الاكياس فيضعونها في المركبة فقالت في نفسها فهمت الآن فقد ردَّت اموالها اليهِ وكلفتهُ العناية بها وعادت المياه الى مجاريها ثم صرفت باسنانها ووقفت ترقب ما يتلو فنظرت احد خدم قصر الوالي

يقود جواد اوريون الادهم فوقف بهِ امام المنزل وحينئذٍ خرجت باولين الى البستان وتبعها اوريون وقد صبغ الدم وجههُ وبدا الفرح في عينيهِ وهو ينظر الى باولين نظرة المتوق المفتون فودَّت كاترينا لو انها افعى فتلسعهما وتمحق سعادتهما وسرورهما . وتماشى الاثنان في البستان حتى صارا على مقربة منها فأكبَّت تسترق السمع وتصغي الى ما يدور بينهما من الكلام فسمعت اوريون يقول

— غمرتني بفضلكِ حتى انافي استحي ان اطلب منكِ معروفاً آخر ولكنك تعلمين ثقل الضربة التي اصابتني بفضل ماري وتعرفين ان ما حدا بها الى عملها هذا انما كان حسن طويتها وصفاء نيتها وشدة ميلها اليكِ

— وتريد ان اعنى بها الآن فعلى الرحب والسعة بشرط ان تأتي بها الى هذا البيت فاني لن ادخل بيتكم ابداً

— ولكن مرضها يحول دون نقلها وقد اهملتها امي اهمالاً اثَّر في اعماق قلبها

— وكيف تستطيع امك ان تسيء الى حبيبتها

— لا اراكِ تجهلين شدة حبها لابي فقد هدَّ موتهُ ركنها ومحق سعادتها فلا تقع عينها على ماري الاَّ ويخطر ببالها ذلك المنظر الرهيب الذي تجلَّى امامها قبل وفاتهِ فترى في البنت التعيسة علَّة شقاء البيت

— اذاً ارسلها اليَّ فستلقى من عناية اهل هذا البيت بها ما يشفيها

— شكراً لكِ وساطلب الى امي لتأذن لنا في ذلك فماري وحيدة الآن بعد ان حظرت موسنة على ابنتها زيارتنا ثم دار الحديث على كاترينا وماري فقالت باولين ومن الغريب ان كاترينا على صغر سنها وخفة روحها قد تبدلت في هذين اليومين فصارت رضية الخلق كريمة العواطف وعندي ان ما اصابها القى حملاً ثقيلاً على عاتقها

— ولكن حزنها لا يطول فهي بالفطرة مملوَّة نشاطاً وخفة ويلوح لي ان اكبر اوزاري في ذلك اليوم المشوم ظهوري امامها بمظهر المحب العاشق ولا ارى لي عذراً يبرئني من هذا الذنب سوى انني فعلت ما فعلت اكراماً لامي وحسبي ما قلت في هذا الشان وما اصابني من جرائهِ امَّا اليوم فساجري في سبيل الحياة حثيثاً والى بيتي المرأة التي تحبني والتي ستكون زوجتي ولما قال ذلك دارا في جهة اخرى وابتعدا عن كاترينا امَّا هذه فعلمت من حديثهما ما ارادت الوقوف عليهِ وادركت ان ما تخشاهُ وقع وان اوريون لا يعبأُ بها فاخذت ترتجف واحست بثقل في قلبها وغلت في صدرها الغيرة والغيظ فتمنت الموت ثم عزمت على العودة الى البيت فاذا بالحبيبين عائدان فتربعت مكانها لعلها تسمع بعض حديثهما

الفصل الثالث والعشرون

كانت الغاية من مجيء اوريون وبلس الى بيت روفينس البحث عن الخطة المثلى للتصرف باموال باولين فبعد ان عقدت الجلسة واقروا على خطة الصرف اختلى بالمال وانفرد اوريون بنسيبته وفي فؤاد كل منهما ما فيه من الوجد والهيام ولما صارا وحدهما خرّ اوريون على ركبتيه وطلب مغفرتها فذكّرته بكتابه وبوعده الذي وعد لكن قلبها ابى ان يطيعها وتحركت عوامل الحب في صدرها واذ ارادت كتم ما بها لجأت الى الحديث فسألته عما يعني بردّ الوديعة الثمينة التي اشار اليها في عرض رسالته فنهض وابرز من جيبه حقًّا صغيرًا وفتحه واخرج منه زمردة ثم ناولها اياها وقال

— هذه زمردتك فخذيها وهبيني صفحك وثقتك بي عوضًا منها. فلما رأت الزمردة اجفلت وبدت الدهشة والسرور في وجهها وانبعث الفرح من عينيها وظلت كذلك بضع دقائق ثم تناولت الزمردة وقالت

— ان الزمردة في يدي الآن فاحذر ايها الغيّ

— لا مكان للحذر فهذه ليست حية مني ولكنها زمردتك اعدتها اليك وقد صدقت فيما قلته فاني والزمردة في يديك فخذيها واحفظيها الى يوم تصير مصلحتنا واحدة

— لصلحتك المقام الاول عندي حفظًا لولاء ايك فقد جلبت عليك لعنة وصار من واجباتي اسعافك على التخلص من ثقل تلك اللعنة فاذا اصغيت الى نصيحتي فقد استطيع ان افعل ذلك

— يربك قولي ما تشائين

— فقالت الى البستان فهواه هذه الغرفة يكاد يخنقني. ثم مشت فتبعها وهي تعيد على مسمعه ما قالهُ فبلس ثم قالت ان الحياة عمل وواجب يجب ان تقوم بها. فقال انها لكذلك وسأتخذ هذا القول شعارًا لي بعد ان فهت به . ان الحكم والامثال لا تجعل المرء حكيمًا وقد تلقينا شيئًا كثيرًا منها في المدارس ولكن لا فائدة منها اذا لم نقترن بعزم شديد وسعي اكيد توصلاً الى الغاية منها اما انا فعزمي سيبلغ بي الى الغرض المطلوب فاني ارى كوكبًا لامعًا يقودني اليها

— حبكِ هو الكوكب وسائق به

— اتتقين .... أتبعثين بي بعض الامل

— نعم وسارى فيكِ انت عدوي ومضطهدي خير الاصدقاء واعزهم الى قلبي

ثم عاودا المشي فاخبرها انهُ ذاهب في الغد الى النسطاط ليلقى عمرًا واخذ يشرح لها الخطة

التي رسمها لنفسهِ ووصف ما ينوي فعلهُ من بذل قواهُ في خير بلادهِ سواءٌ كان في خدمة الخليفة او منقطعاً الى اعمالهِ وشؤونهِ الخاصة . وسألتهُ باولين عما صار اليهِ امر الزمردة التي انتزعها من القطيف فحاول ان يخفي الحقيقة عنها ولكنهُ لم يلبث ان افاق من ذهولهِ فصاح

— لقد كذبتُ في ما قلتهُ فاني ارسلت ذلك الحجر الكريم الى القسطنطينية لاصوغهُ حليةً لفتاة اخرى كنت اميل اليها على انني لم افقه معنى الحب حتى رأيتكِ

— فقالت ليمحَ ذكر ذلك اليوم المشوم من اذهاننا ولما قالت هذا ودعها وانصرف

اما كاترينا فتربصت مكانها حتى خرج وحينئذٍ سمعت من يدعوها باسمها فنهضت ورمت باولين بنظرة كالسهم فلما صارت الى البيت وبخّتها امها على غيابها وعدم استعدادها لمقابلة البطريرك فبكت من القهر ثم قالت لا استطيع مقابلتهُ فاني اكاد اموت من وجع الراس وسألزم غرفتي لعلي استريح

الفصل الرابع والعشرون

وبعد ظهر الغد امتطى اوريون خير جيادهِ وعبر الكبري « الجسر » الى الفسطاط يطلب لقاء عمروٍ فسار على مهلٍ وهو يعجب لما طرأ على تلك البقاع من التبديل والتغيير فبعد ان كانت حقولاً ومزارع اصبحت مدينة كبيرة فيها البيوت والجوامع والمخازن وجميعها على الزيّ العربي كانما هي جزء من بلاد العرب نقلوهُ الى مصر فسار في الشوارع الغاصة بالباعة والتجار والعمال حتى وصل الى بيت عمرو فقيل لهُ ان القائد خرج الى الصيد وانهُ سيستقبلهُ في الحصن وكان هذا الحصن قائماً على هضبة يشرف على الفسطاط والنيل والسهل فصعد اليهِ وسأل عن عمرو فانبأوهُ بانهُ لا يعود قبل العتمة ثم دعاهُ البواب الى الجلوس في رواق مفروش بالرخام فاستاء لهذه المعاملة ورأى فيها حطة من قدرهِ بعد ان كان القوم يحتفون بهِ كالامراء فشقَّ عليهِ ان يكون كعامة الناس وكاد يكشف امرهُ للبواب لكنهُ احجم وجلس في مكانهِ واخذ يتأمل ما امامهُ من المناظر فاكبر خصب البلاد وجودة تربتها واخذ يردد في خاطرهِ ما قالهُ شاعر اليونان في النيل وما تمناهُ قيصر من اكتشاف منابع ذلك النهر العظيم مصدر حياة مصر التي كانت تحسب اهراء رومية والقسطنطينية ايام عزها وسؤددها . وطفق ينظر في الوسائل التي تمكنهُ من اعادة البلاد الى سابق مجدها وعظمتها وترد لاهلها السلطة التي خسروها والاستقلال الذي لابدَّ منهُ للنموّ والتقدم وبينما هو غارق في افكارهِ سمع وقع اقدام ورأى الغلمان يحملون المصابيح وهم يدنون اليهِ فظن انهم اتوا يدعونهُ الى سيدهم لكنهُ لم يلبث ان رأى عمراً وراءهم وقد جاء ليرحب بضيفهِ الكريم وبعد ان حيّاهُ اعتذر اليهِ عن ابطائهِ في

العودة وشدد النكير على الخدم لانهُ لم يفتحوا لهُ احدى المقاصير ثم اخذ يحدّث اوريون عما اصاب في يومهِ من الصيد وقال جرحتُ اسدًا فلم اقتلهُ وقد فرَّ في الادغال فلم نعثر بهِ على اني سأطلبهُ حتى اجدهُ وكان كلامهُ باليونانية تعلمها ايام كان شيخًا للقوافل العربية التي كانت تأتي الى الاسكندرية . ثم دعاهُ الى البيت وهو يبالغ في اكرامهِ والترحيب بهِ حتى بلغا الغرفة فاليا السماط ممدودًا فدعا عمرو اوريون للاكل وجلس الاثنان ومعهما عبادة وكيل عمرو وهو جبار اسود فقال عمرو هذا عبادة وكيلي ولما كان لا يعرف اليونانية فسأترجم بينكما . ومن خبر عبادة هذا انهُ ولد عبدًا فاتصل بهمتهِ وشجاعتهِ ودهائهِ الى مقامهِ الرفيع . فاخذ اوريون يتأملهُ وقد اعترتهُ الدهشة اما هو فكان مطرق الراس الاَّ اذا اراد الكلام فيخاطب عمرًا و يحدج اوريون بنظرات ملؤها الكراهة

وبالغ عمرو في ملاطفة ضيفهِ فسألهُ عن مقامهِ في القسطنطينية وعمَّا حدث لهُ فيها فاندفع اوريون يشرح لهُ ذلك بالتفصيل فالتفت عبادة الى عمرو وقال

— عجبت لك تأذن لهذا الثرثارة ان يقلقنا باحاديثهِ الفارغة ولا تفاتحهُ بشأن ما دعوتهُ لاجلهِ

فاجابهُ عمرو اخطأت فالمرء يكون على احسن ما هو عليهِ اذا انفسح لهُ مجال الكلام وكان امامهُ من يصغي الى حديثهِ ولحديث هذا الفتى طلاوة وفائدة ثم دار الى اوريون وقال

— اتاني البطريرك اليوم فرأيت منهُ كرهًا لايك فما سبب هذا العداء . فشرع اوريون يحدثهُ بالاسباب التي دفعت البطريرك الى المجاهرة بتلك البغضاء وقال ان بنيامين يريد ان يتبرأ في عيون النصرانية من تهمة تسليمهِ بلاد نصرانيَّة الى العرب المسلمين فلم يرَ خيرًا من الصاق التهمة بابي

فاجاب عمرو . فهمت ما تقول وعاد اوريون فاخبرهُ ان كيل العدوان طفح يوم اراد البطريرك ان يضع يدهُ على دير الراهبات ويوقع بهنَّ طمعًا بمقتنياتهِ مستندًا الى تأويل بعض العبارات الواردة في صكوك الدير مع ان العبارات المذكورة في غاية من الجلاء والوضوح فاعترضهُ ابي وكفَّ اذاهُ عن الدير . وحينئذٍ تبادل عمرو وعبادة النظرات وقال الاول

— وانت افتريد ان تستسلم للبطريرك وتنسى الاهانة التي اهانك بها بعد وفاة ابيك

— كلا

— وانَّى تستطيع ردَّ كيدهِ في نحرهِ وانت نصراني وفي يدهِ سعادة روحك وشقاؤها فاطرق اوريون وقال ذلك ما اجهلهُ فمدَّ عمرو يدهُ وقبض على ذراعهِ وقال

— ولا اراك مدركهُ وهبك احرزت الوسائط المطلوبة فلا يَبِّل لك بالانتفاع بها واعلم ان ايذاء المرأة والطير المحلقة في الجوّ لاسهل من ايذاء رجال الدين فاحذر واذا شئت ان تثأر اباك دلتك على وسيلة تبلغك امنيتك على اسهل سبيل . فصاح اوريون

— وما هي

— فقال عمرو كن واحدًا منا

— فقال اوريون ولكنني منكم وهذا ما جئت لاجلهِ فسيفي ومالي رهن اشارة حكام بلادي اعني بهم انت ومولاي الخليفة

فقال عمرو احسنت فلا اله الاَّ الله فالحكم المنا وليس من يستطيع ان ينكر ان نبينا صلى الله عليهِ وسلَّم جاء بالهدى ودين الحق وكان خاتمة النبيين الاَّ الذين ختم الله على قلوبهم فقد اعترف ابوك ....

— ابي

— اعترف باننا اكثر غيرةً وحميَّةً واشدّ ايمانًا وايقانًا بديننا من قومهِ فاذا اسلمت فلن يستطيع البطريرك مسَّك بسوءٍ على الارض ولا نزع سعادتك ونعيم ابيك في الجنة فهات يدك. امَّا اوريون فشخصت عيناهُ واعتراهُ ذهول فقال

— ايها القائد العظيم ليس هذا مغزى كلامي فاشرف الاعمال عندي واعظمها قدرًا في عينيَّ خدمة الخليفة ولكني لا استطيع جحد ايماني

— اذًا فيدوسك البطريرك. قال هذا والتفت الى عبادة واخذ يكلمهُ بالعربية فقال اوريون

— يريك يا مولاي اصغَ الى ما اقولهُ . ان اسلامي يعود عليَّ بفوائد جمَّة على ان الثبات في الدين الذي ستطالبني بهِ يوم اعتنق الاسلام يمنعني عن ترك دين اسلافي

— حتى يجبرك الكهنة على تركهِ

فقال اوريون من يجبرني نعم ان البطريرك عدوي الالدّ لكني فقدت ابي واؤمن بلقائهِ في الآخرة

فقال عمرو وانا اعتقد بالخلود ايضًا فان في الآخرة جنة واحدة وجحيمًا واحدًا كما ان في الكون الهًا واحدًا فقط

وكان عبادة اثناء الحديث يهزأ باوريون حتى اثار ثائر غيظهِ فدار عمرو اليهِ ويجنهُ على صخريتهِ فنشأ بينهما جدال طويل ورأى اوريون ان يكتم ما بهِ لحرج الموقف واحسَّ عمرو بما كان يخالج فؤاده فالتفت اليهِ وقال

— ان عبادة حكيم وقد اثار كلامهُ فيَّ بعض الشبهة فان نصرانياً في مقامك وسنك لا يأبى المجد والسعادة في الدنيا طمعاً بسعادة موهومة في جنتهِ في الآخرة فاذا ابى واطَّرح المجد والغنى ونزع من قلبهِ حبَّ النزوع الى العلاء واخذ الثأر فلا بدَّ من سبب وراء الاكمة فهدئ روعك وثق اني اهتم بك واحميك من كل ضرّ اذا اعربت عما يخامرك وبحت بعلَّة ابائك وايقن ان سرَّك سيبقى مدفوناً في صدري فلا يذاع فانا اكبر منك سنًّا واكثر منك خبرة باحوال هذا الدهر وقد كنت صديقاً لابيك من قبلك

فقال اوريون لا افوه بكلمة امام هذا الرجل فقد سمعتك تقول انهُ لا يفهم اليونانية ولكني رأيتهُ يحلقف كل لفظةٍ انطق بها وقد حملتهُ جرأتهُ على الهزء بي

فقال عمرو انهُ وكيلي وهو بطل باسل امين فاذا صرت منا صارت طاعتهُ واجبة عليك واعلم يا فتى اني دعوتك لالقي عليك شروطاً لا لاتلقاها منك وقد اذنت لك في الدخول الى هنا فلا تنسَ اني نائب الخليفة مولاك ومولاي

فقال اوريون . اذاً فائذن لي في الانصراف فان قلبي وشفتيَّ مختوم عليهما في حضرة هذا الرجل وقلبي يحدثني بانهُ عدوي

فقال عمرو . احذر ان يصير كذلك . فخيَّا اوريون يريد الانصراف ولم يخفَ على عمرو ما فعل عبادة واحسَّ بما يدور في خلد الفتى فانقلب من الشدة الى اللين والحَّ عليهِ في البقاء وقضاء الليل في منزلهِ فشكرهُ واستأذن في الانصراف وخرج فتبعهُ عمرو حتى اذا صارا بحيث لا يسمعهما عبادة قبض على يد اوريون وقال

— احذر هذا الرجل فلم يفتني انك سبرت غورهُ وعجمت عودهُ فابديتَ شجاعة وطيشاً اما انا فاتقنى لك الخير

— اني موقن بذلك واما الآن وقد صرنا وحدنا فاعلم يا مولاي ان ابي قبل ان اسلم الروح غضب عليَّ وابى ان يمنحني بركتهُ الابوية. قال هذا وشرق بريقهِ ثم استطرد الكلام فقال وقد فعل ذلك لذنب اقترفتهُ دفعني الى ارتكابهِ نزق الشبيبة فلما مات فكَّرت في حياتي فالفيتها لا فائدة منها فجئت اليك على امل ان ينتج امامي باب يوصلني الى الاعمال العظيمة التي اتمنى ان اقوم بها . فقاطعهُ عمرو وقال

— ستجد مني عوناً لك على نيل بغيتك وقد ذكَّرتني طلعتك يا فتىَّ بابن لي ضلَّ وكفَّر عن ضلالهِ بسفك دمهِ فمات شهيداً في ساحة الوغى فعُد الآن الى بيتك وسالقاك بعدها انما احذر هذا الرجل فهو ناقم منك واذا لقيتهُ فاخفض من كبريائك. فودعهُ اوريون بعد ان شكرهُ

وانصرف في سبيله وعاد عمرو الى مخدعه ورفع الستارة فاذا عبادة وراءها على قيد بضع اذرع فتميز غيظاً وقال

— اتسترق السمع فيالك من رجل عجيب بطل شديد البأس في الوغى وحكيم داهية في المشورة واسد حردان في جسم انسان فاذكر مقامك وما صرت اليه ولا تعد فترتكب من الافعال المغايرة ما يذكرني باصلك الوضيع الذي رفعتك منهُ فقد اسأت الى ذاك الفتى

— اهذا جزاء الخدمة الصادقة وهذا ما يقولهُ المسلم لاخيه لاجل كافر

— لقد نلت اضعاف ما تستحق جزاء خدمتك وقد اتخذتك وكيلاً لي لدهائك وشدة بأسك ولم افعل ذلك الاَّ تأييداً لدولة الاسلام وعلام تكره هذا الفتى ولم يمسَّك بسوء فانت ترى فيهِ مقوقساً آخر وتأبى الاَّ ان تكون ذلك المقوقس

— وهل عليَّ في ذلك من حرج فانا بعدك احكم القوم واعقلهم واشدهم نجدة

— صحيح ما قلت ولكن عمل المقوقس لا يتولاهُ سوى مصري قبطي فالفطنة تقضي بذلك وهو امر الخليفة

— وهل امر الخليفة ان تظل اموال هذا الفتى الطائلة في يدهِ

— لقد عرفت سرَّك الآن فقد راقك ما عند المقوقس من المال وما لهُ من العقارات والمقتنيات والعبيد والاماء والخيل الصوص نحن يا عبادة أوَليس من الحرام ان نشتهي ما لغيرنا

— فمن استخرج الكنوز المخبأة تحت فسقيَّة بطرس القبطي وقتلهُ

— انا — على اني فعلت ذلك لا بعث المال الى المدينة وكان بطرس قد خبأها قبل ان قتلناهُ اما المقوقس وابنهُ فاعترفا بجميع ما عندهما الى آخر دينار ودفعا الجزية عنهُ تماماً فقتلناهما لهما لا ينازعهما فيها منازع ولن تفوز بدرهم منها فدع ابن المقوقس وشأنهُ ولا تحرجني وانصرف الآن وهيئ ما ترتأيهِ في قسمة العقارات فنشرحهُ غداً في المجلس فاذا استحسنتهُ عملتُ بهِ . ولما قال ذلك انصرف وبقي عبادة وحدهُ يحرق الارَّم حتى دخل العبيد فرفعوا فضلات الطعام

الفصل الخامس والعشرون

خرج اوريون من الفسطاط وهو يثني على عمرو بن العاص وينظر بينهُ وبين امراء الروم فاكبر ما بين الفريقين من الفروق التي كانت علة انتصار المسلمين على حكام مصر وتمثل لهُ عمرو بكرم اخلاقهِ وحدة ذهنهِ وانفتهِ وشهامتهِ كتمثال من تماثيل اليونان الجميلة . وبدا امراء الروم لعينيهِ كتماثيل اقزام مشوهة وضعوها الى جانب ذاك فظهر الطباق بينها على اتمهِ

وكان الليل مقمراً والنسيم بليلاً والنهر كصدرة من زرد الفضة فشرح ذلك المنظر صدرهُ

وعاودتهُ احلامهُ وتمنى لو ينفسح لهُ مجال العمل فيبدي همتهُ وعزمهُ ويظهر للملإ قاطبة ما بين جنبيهِ من الاخلاق الطيبة والصفات الحسنة وكأن فرحهُ اطار النوم من عينيهِ فمشى رأس جوادهِ الى بيت روفينس ولما دنا منهُ رأى نورًا في احدى غرف الطبقة العليا ولم يكن يعلم مكان غرفة باولين من البيت فوقف ينظر الى النافذة المفتوحة فابصر امرأة فتعرفها فاذا بها المرضع اظلَّت بعد ان سمعت وقع الحوافر لعلها تعرف من القادم وبينما اوربون واقف ابصر رجلاً في الغرفة فاستغرب ذلك وحدق بباصرتيهِ الى الرجل فاذا هو فيلبس فخشي ان تكون باولين مريضة وان الطبيب والمرضع معها يداويانها على انهُ لم يلبث ان رأى باولين نفسها تدنو من الطبيب وقد مدَّت ذراعيها اليهِ فوقع اوربون في حيرة شديدة وتنازعهُ القلق والغيرة فقد كان يعلم أن الطبيب صديق حميم لحبيبتهِ لكنهُ خشي ان الصداقة تحولت حبًّا واخذ يعيد لنفسهِ بعض ما شاهدهُ من امارات الحب في فيلبس فشقَّ عليهِ ان يخسر باولين واخذ يعلل نفسهُ بان وجود فيلبس معها في تلك الساعة يمكن تأويلهُ لكن الغيرة ملأت فؤادهُ وسدَّى حاول نزعها فلم يستطع ذلك فلكز جوادهُ لكزة عنيفة فطار بهِ حتى كاد يسقط عن ظهرهِ وبعد ساعةٍ عاد نحو بيتهِ فالقى السائس بانتظارهِ فدفع اليهِ زمام الجواد وترجل فمشى على مهلٍ وفيما هو كذلك ابصر فيلبس عائدًا من بيت روفينس وهو يتنهَّد من كبد حرَّى فجاوز اوربون كأنهُ لم يرَهُ ثم دخل الى احد البيوت المجاورة وعقب دخولهُ نوح وعويل في البيت فعلم اوربون ان عليلاً فيهِ مات وعاد فيلبس فخرج من البيت وسار يتعثَّر كالنشوان الى بيتهِ وهو قصر قديم كانت فيهِ نظارة ماليَّة مصر فلمَّا دوخ العرب البلاد نقلوا المالية الى الفسطاط والحقوا اعمالها منف الماليَّة بادارة خزينة المقوقس ففرغ القصر ورأى مجلس منف ان ينتفع بريعهِ فاجروهُ وكان في من استأجرهُ فيلبس ومربيهِ ابولون الشيخ فلما دخل فيلبس تلك الليلة وجد ابولون امام مائدةٍ عليها كثير من الرقاع والطروس والدفاتر وهو ينظر فيها فجاءهُ وجلس صامتًا فالتفت اليهِ ابولون فقرأ في وجههِ ما دلهُ على اضطرابهِ وحزنهِ فعاود العمل كأنهُ لم يحفل بما رآهُ

ومن خبر هذا الشيخ انهُ وُلد في جزيرة انس الوجود بجوار هيكل ايسس الفخيم حيث ظلَّت عبادة الاصنام شائعة الى ما بعد مولدهِ رغمًا عن اوامر الامبراطرة القاضية بمنعها وطالما سيَّروا الجيوش لقتال الوثنيين هناك فلم تثبت جنودهم امام قبائل البدو التي كانت تدين بعبادة ايسس منتشرةً بين النيل والبحر الاحمر وكان والد ابولون هذا من كهنة ذلك الهيكل فشبَّ الفتى على دين آبائهِ حتى دهمتهم حملة من جيش الروم فاصابت منهم وشتتت شملهم ومزقتهم كل ممزق وغنمت الهيكل واحتلت الجزيرة فلم ينجُ سوى بعض الكهنة وبينهم اهل بيت ابولون ففرَّ هؤلاء

الى انطاكية ولم يطل مقامهم فيها حتى اوغر مطرانها صدر الوالي عليهم فارسل اليهم الجند فاعتقلهم الاَّ ابولون واباهُ فانهما فرَّا وحملا معهما كنوز ايس فاتيا الاسكندرية وظلاَّ فيها حتى توفي الاب فانتقل ابولون الى منف واقام فيها يقضي اوقاتهُ في الدرس والتنقيب محافظاً على شعائر دينهِ فاذا اراد التخلي عن عزلتهِ اجتمع بالمنجمين والعرَّافين والكهنة الذين كانوا يشتغلون في تحويل المعادن الرخيصة الى ذهب ولم يلبث هؤلاء جميعاً ان اكتشفوا منزلتهُ في العلم ومبلغ معرفتهِ وحكمتهِ فذاع خبرهُ بينهم وانتشر صيتهُ في مصر حتى بلغ العرب في الفسطاط فلما اراد عمرو بن العاص تعيين القبلة كلفهُ ذلك فصدع بامرهِ وعين القبلة واعتمدها المسلمون

واعتراهُ مرض فاتوا اليهِ بفيلبس وكان هذا لا يزال حديث السنّ قريب الشهرة فافرغ جهدهُ في علاجهِ ومداواتهِ حتى برئ واعجب ابولون بسعة معارفهِ وحذقهِ وفطنتهِ فعطف عليهِ وتعلَّق بهِ وكأنَّ كنز المحبة الذي كان مقفلاً عليهِ في فؤادهِ انفتح وافرغ ما فيهِ على فيلبس فاطلعهُ على ماضي سيرتهِ وخلاصة معتقدهِ وعينهُ وريثاً لاموالهِ مشترطاً عليهِ ان يقيم معهُ الى يوم وفاتهِ فرضي الطبيب وسكن الاثنان في بيت واحد وكان الشيخ اذ ذاك يشتغل في وضع كتاب في اللغة الهيروغليفية فطلب من فيلبس ان يشاركهُ في تأليفهِ لقلة علمهِ باليونانية ولسعة اطلاع هذا فاشتركا في المعيشة والمسكن والعمل على اختلاف مشربيهما وتفاوت سنيهما فقد كان ابولون يناهز السبعين وقد صلع رأسهُ وتغضن جبينهُ واحدودب ظهرهُ الاَّ ان عينيهِ لم تزالا ينبعث منهما الذكاء والحدَّة والانفة وظلَّ محافظاً على عقائدهِ وطقوس مذهبهِ يقيم الصلوات في اوقاتها ويكثر من الاغتسال ولا يلبس سوى الكتَّان الابيض ولا يأكل من اللحوم سوى لحم الطير والبقول وكان شديد الكره لليونان وللاعيان لزعمهِ ان ما قاساهُ من الاضطهاد وما ذاقهُ واهلهُ من الجور كان علتهُ هؤلاء

وكان فيلبس لا يكتم عنهُ امرًا ولو فعل لانتزع سرهُ منهُ بفطنتهِ ودهائهِ فلمَّا لقي باولين وتيمهُ حبها اخذ يصفها ويطنب في مدحها ويتغنى بصفاتها الى ان وقعت النظرة بينها وبين ابن المقوقس وقام فيلبس على العناية بها فاطلعهُ على ما جرى ولحظ الشيخ ما كان يخامرهُ من الميل الى التزوج بها فقال

— تدبَّر ما تقول وما تفعل فان هؤلاء الشرفاء لمن اقسى الناس قلباً وابعدهم عن الرحمة والمعروف واولادهم مثلهم فهم ينظرون الينا لا كاقران بل كمن هم ادنى منهم مقاماً وجبلة فافقه كلامي ان ابنة توما هذه تبش اليوم في وجهك لحاجتها اليك فاذا ما انقضى اليوم وجاء الغد طرحتك كما اطرح جلد البير من تحت قدميَّ يوم ينقضي الشتاء وتبدو طلائع الربيع اما قولك

ان النفور مستحكم بينها وبين ابن المقوقس فذاك سحابة صيف فلا يلبثان ان يصطلحا واعلم ان الحب والبغض طرفا عصاً فيمكن قلبها ساعة تريد ولمّا كان هؤلاء القوم من طبقة واحدة ودم واحد فهم يتجاذبون كما يتجاذب الحديد والمغنطيس

لكنّ هذه النصائح ونحوها من التقريع والتوبيخ كانت كالكتابة على صفحات الماء فانها لم تثنِ عزم فيلبس فلم يقطع الرجاء وظلّ في صدرهِ بقية من الامل حتى بعد ان ابت باولين عليهِ خطابها كحب كما تقدم الى ان كان يوم الاجتماع في بيت روفينس للنظر في شؤونها المالية فتبين لهُ ان ابنة توما لم تعد تكره اوريون بل كان فرحها بوجودهِ معها ظاهراً في جميع حركاتها وكلامها فرأى حينئذٍ ان ايولون كان مصيباً في ما قالهُ فضاق صدرهُ وعيل صبرهُ ولم يستطع تأويل ما فعلتهُ تلك الحسناء وعجز عن استطلاع طالعها فانها ظلّت تبالغ في اكرامهِ والاحتفاء بهِ فعاودهُ بعض الامل ولما ذهبا لعيادة الجريحين في تلك الليلة التي راج فيها اوريون الى الفسطاط هزّهُ الوجد فاناض في وصف حبهِ لها وشدة تعلقهِ بها فلقي منها اعراضاً عن حبهِ وتمسكاً بصداقتهِ قطعا املهُ وضيعا رشدهُ وفي اثناء كلامهِ معها رآها اوريون كما تقدم فعاد فيلبس من بيت روفينس لا يلوي على شيء حتى اذا ما وصل الى منزلهِ استلقى على مقعد في غرفة ايولون وقد بدا الحزن والخيبة في وجههِ فطرح الشيخ طروسهُ على المائدة وقال

— اذاً لقد تمّ تمثيل الرواية واظنها مأساة فقال فيلبس لا تكون مأساة وانا في قيد الحياة

— لكنك تجروح الفؤاد وجرحك دامٍ فلومك على نفسك فقد حذرنا الثعلب من الفخ وكان في طاقتهِ امس ان يبتعد عنهُ فابى وهو اليوم يلعن حماقتهُ ويندب سوء حظهِ اتريد ان اصف لك ما حدث ان الشريفة حافظت على ولائك ايام حاجتها اليك حتى اذا ما طاب لها المقام ووضعت يدها على اموالها القتك عنها واستعاضت من الطبيب المسكين بادونس الفتان كما يغيب نور القمر ساعة تطلع الشمس اصحيح ما قلت ام كذب

— ليتهُ كان كذباً ثم وقف فيلبس وقال

— ايها الصديق الصدوق قد اتخذتني ابناً لك ولقيت فيك اباً بدلاً من والدي الذي مات في صباي فعطفت عليّ وغمرتني بحبك وفضلك فاعلم انهُ لم يبقَ لي سوى باب واحد للفرج فقد عزمت على فراقك وهجران هذه المدينة فاطلب البعد عن باولين فقد ذقت في عشرتها خلاصة السعادة ثم تالني منها عذابٌ لا يذكر في جنبهِ عذاب جهنم فانا ذاهبٌ لا محالة الاّ اذا استطعتَ ان تشفي ما بي من الوجد او تحولهُ الى حب اخوي فلما سمع ايولون هذا الكلام ورأى اضطراب صديقهِ وشدة حزنهِ صاح باعلى صوتهِ

— اتقول جدًّا ام اتصلت بك الحماقة الى هذا الحدّ الم يكفك ما اصابك من العذاب بفضل هذه . . . . افأدركت الآن علة تحذيري اياك من الاشراف والشريفات اتحسب انها تعتد برجل فاضل وتقابل معروفهُ بالشكر وامانتهُ في خدمتها بالثناء ايسرك ان تقضي على سعادة شيخٍ فانٍ وتحق هناءهُ لاجل ابنة توما وحبيبها فاين عقلك واين حكمتك وما الفائدة من علمك وفضلك اذا قضيت ايامك في النوح والعويل كما تفعل النساء فتربص في مكانك وساعملك كيف تكبح جماح وجدٍ يحط من كرامتك وقدرك

— علمني فقد سألتك ذلك فانا لم اخلق لابكي ربوع الاحبة وانوح على اطلالهم وهانذا مستعد لمجاهدة هذا الهوى ومصارعتهِ ولكني القيم عليها وعلى اموالها ووظيفتي هذه تقضي عليَّ برؤيتها كل يوم واخشى ان يصرعني الهوى فلا اقوى عليهِ فاهلك نفسًا وجسدًا وارى ان منف لا تسعنا نحن الاثنين

— اذًا فلا تبقى حضرتها في منف

— وماذا تعني

— ان منف في حاجة شديدة اليك وهي في غنىً عن السيدة الشريفة على اني ارى الفجر يكاد ينشق فهيَّا بنا الى مضجعينا وكم من عقدة اعيا الحكماء حلها في الليل فاهتدوا اليهِ بنور النهار ولعلَّ الالاهة توحي اليَّ اسلوبًا لحلّ هذا المشكل فاتكل عليَّ ولا تقل بعد انك تريد فراقي فتترك صديقك الشيخ وحدهُ فانا اعرف الناس بشهامتك فاذهب الآن وحاول ان تنام عساك ان تستريح وقد ينسيك شقاءك ما تراهُ من شقاء مرضاك وعذابهم وكثيرما هم. ثم سار كل الى مخدعهِ فلما انفرد ابولون وقف يناجي نفسهُ فقال

— ألا ان حشر اثنتي عشرة فتاة في جهنم اولى من ان يخسر العالم رجلاً كفيلبس وقد عجمت عودكِ ايتها السيدة ووقفت على ما يدور في خلدكِ فانت تحسبين الطبيب غير كفء لك فنبذتهِ عنك نبذ النواة واتخذت اوريون وللناس فيما يعشقون مذاهب فما قولك اذا تداخل ابولون في هذا الشأن فانظريني قليلاً ريثما ادبّر الامر بنفسي فقد تلت مطالبي جميعًا في حلبة العلم وليست حياة الحكيم سوى الانتفاع بالمعرفة ولا يصعب على ابولون ان يطبق عينهُ على ماجريات الحياة ولو مرَّة قبل موتهِ ولا ريب ايتها الحسناء في انك تحمدين مقامك مع حبيبكِ في منف لكنك ستضطرين الى تركها لاجل الرجل الذي القيتهِ عنك وثقي ايتها الشريفة انني سارغمك على ذلك

(ستأتي البقيَّة)